الأبعاد الحقيقية لقرارات السادات الأخيرة

بعض أسرار حسم الصراع داخل السلطة في مصر:

تسريح آلاف الضباط الجامعيين من الجيش المصري • وصول سرب طيران سعودي الى القاهرة ليل إعلان قرار السادات

زكريا محي الدين هو شخص مرحلة القمع القادمة في مصر

قبل تحليل قرار السادات الاخير الموجه ضد التحالف الستراتيجي بين حركة التحرر الوطني العربية وبين المعسكر الاشتراكي وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، قبل ذلك لا بد من تحديد حقيقة بالغة الاهمية ، ويؤثر غيابها تأثيرا كبيرا على موضوعية اي نظرة مستقبلية لهذا الامر الشديد الاهمية .. وهذه الحقيقة هي ان العلاقة بين المعسكر الاشتراكي وحركة التحرر الوطني العربية ما كانت ولن تكون في يوم من الايام اسيرة القنوات التي تعبر بها عن نفسها في مرحلة من المراحل .. اي ، على سبيل المثال ، ليست الصداقة العربية ـ السوفياتية مسالة صداقة بين الاتحاد السوفياتي وهذا الحاكم العربي او ذاك ، ولا حتى هذا النظام او ذاك .. فقد تغير عدد من الحكام لا باس به على هذا القطر العربي او ذاك ، وتعاقبوا بشكل متعارض في اكثر الاحيان ، دون ان يؤثر هذا التغيير على نظرة الاتحاد السوفياتي لامكانية التعاون مع ذلك القطر كقطر .. وفي التاريخ القريب للقطرين السوري والمصري امثلة بارزة على ذلك ..

فالصداقة العربية السوفياتية مهما كانت الظروف الانية التي تمر بها ، من فسحات توطد ، الى فترات تأزم .. هي من وجهة النظر السوفياتية ، ومن وجهة النظر العلمية وليدة تحليل موضوعي للمرحلة التاريخية التي يمر بها الوطن العربي ، واثر هذه المرحلة على الوضع الدولي المحكوم بالسمة الرئيسية في هذا العصر : سمة الصراع بين الاشتراكية المظفرة وبين الامبريالية المهزومة .. وان كان هذا الوصف الشمولي يحتوي في داخله على معارك مكانية او زمانية محدودة وجزئية تتناقض نتائجها مع هذا الخط الشمولي العام .. فهذا امر طبيعي جدا .. اذ ان الامبريالية كأي طبقة اجتماعية حاكمة ومستغلة (بالكسر) تزداد عدوانية وفاشية كلما استهلكت دورها التاريخي وواجهت مرحلة افولها .. وفي مرحلة من هذا الطراز قد تتمكن من قمع انتفاضات تاريخية كثيرة لكن هذا القمع او النجاح الجزئي فيه ، ليس الخط العام الذي يحدد مسارها.

وعليه فالعلاقة بين المعسكر الاشتراكي وفي مقدمته الاتحاد السوفياتي وبين حركة التحرر الوطني العربية بشكلها العام ، او اشكالها التفصيلية مبنية على المعطيات التالية :

■ ان الوطن العربي بامكاناته البشرية والاقتصادية وموقعه الستراتيجي ، الامور التي تزوده باهميات هائلة ، يعيش مرحلة النضال من اجل التحرر الوطني الديمقراطي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .. وان هذا النضال يهدد اخطر المواقع الامبريالية في العالم .. فيخلع هذه المنطقة من تحت مظلة السوق الامبريالية كاوسع مساحة اقليمية لتوزيع انتاج تلك السوق ، واهم مصدر للمواد الاولية تتزود منه تلك السوق بشروط لصوصية لا مثيل لها في الدنيا ..

كما انه يفك اشد عقد السلاسل الستراتيجية الامبريالية خطورة ..

■ ان نضال حركة التحرر الوطني العربية هذا هو نضال معقد نتيجة العديد والمتفاوت من الظروف الموضوعية والذاتية ، كما انه نضال تتداخل فيه الاساليب وتتعدد المعطيات والمؤثرات وعليه فالتدخل في هذه العملية الثورية يجب الا يقترن بوسيلة واحدة واسلوب واحد ومدخل واحد .. فالتصارع القطري والاقليمي الذي خلفته عصور الاستعمار والاقطاع .. الى جانب التراكم الهائل لاسباب التمزق والتخلف ، الى جانب الضغط الاستعماري الهائل وتفاوت تطور الاقطار العربية وتباين نظم الحكم فيها ، وحضور او غياب الاحزاب والحركات التقدمية في هذا القطر او ذاك ، وضعف وقوة الطبقة العاملة .. كل هذه المعطيات تفعل في عملية التطور والنضال وتزيد من تعقيدها وتعدد وسائلها واساليبها .

■ وعلى هذه الاسس يبني الاتحاد السوفياتي تدخله في هذه العملية الثورية المعقدة على اساس تنشيط الظرف الموضوعي لها .. اي المساعدة في توفير الشروط المادية التي تشكل العامل الرئيسي في التأثير على كل تلك البنى الفوقية المتنافرة . ومن هنا كانت هذه المعادلة الاساسية (طبعا وليست الوحيدة) في العلاقات العربية السوفياتية ، ابقى من كل النظم والسياسات والحكام الذين تعاقبوا على هذا القطر العربي او ذاك .

اثبتنا هذه المقدمة كي لا ننساق مع عدد كبير من المخلصين الذين يظنون ، امام هول الخطوة التراجعية التي اقدم عليها النظام المصري ، ان هذه الخطوة على خطورتها وحجم التراجع فيها ، قادرة على تحطيم التحالف الستراتيجي بين حركة التحرر الوطني العربية وبين المعسكر الاشتراكي وطليعته الاتحاد السوفياتي ، او ان الاتحاد السوفياتي سيتصرف بعد هذه الخطوة بناء على سياسة ردود الفعل الانية او العاطفية . الامر الذي يدخل تلك العلاقة الستراتيجية في دوامات شديدة الخطورة والظلام ..

اننا على العكس من هؤلاء نتصور ان الخطوة كانت تراجعا لفئة عربية حاكمة عن المواقع التي وصلت اليها حركة التحرر الوطني العربية ، وان تراجع هذه الفئة الطبقية لن يؤدي الى غير افساح المجال امام قوى طبقية جديدة متقدمة عليها للنضال من اجل دفع مواقع حركة التحرر العربية الى الامام للوصول بها الى مستوى تصبح معه علاقات التحالف مع المعسكر الاشتراكي اكثر قوة واشد صميمية .. رغم ان مرحلة التغيير في المواقع الطبقية قد تطول بعض الشيء وقد تجري خلالها بعض النكسات غير القليلة الحدة .

مقولات التضليل

بعد هذه المقدمة الاساسية نأتي الى قرارات السادات ، وقد كثر حولها القول وتعددت التعليلات ، وفي اعتقادنا ان اكثر ما قدم حولها من اقوال وتعليلات كان كلاما هادفا يعبر عن تكتيك وطموح القوى الطبقية ذات المصلحة في هذا القول او التعليل .

وعلى هذا الاساس نجد انه من الضروري قبل وضع قرارات السادات في السياق التحليلي الذي نراه من ضمن الظروف الدولية والعربية الراهنة ، لا بد من مواجهة وتفنيد بعض المقولات التحليلية والتعليلية التي انطلقت وراء تلك القرارات وكجزء متمم لها ، غرضه تضليل الجماهير العربية وحجب رؤيتها في الوقت الذي ازدادت فيه الامور عراء بشكل يهدد مواقع القوى التي تعرت بسرعة .

المقولة الاولى

اول هذه المقولات ان القرارات التي اتخذها الرئيس السادات كانت بالتشاور والاتفاق مع الاتحاد السوفياتي :

رغم ان الاتحاد السوفياتي نفسه قد فضل في بعض اجهزة اعلامه الرسمية تبني هذا القول، فمن المعتقد ان ذلك ليس الحقيقة ، وانما كان هذا التبني هو الموقف التكتيكي الاصيل المعبر عن حرص الاتحاد السوفياتي على حماية ما تبقى من صداقة بينه وبين « العرب » انطلاقا من حرصه على دعم النضال التحرري العربي ، وكان ذلك اثباتا لوجهة النظر التي سقناها في المقدمة ، والتي تؤكد ان سياسة الاتحاد السوفياتي لا ترسمها ردود الفعل .

واذا كان غرض الاتحاد السوفياتي من تبني هذه المقولة واضحا ، فان غرض اجهزة الاعلام المؤيدة لقرارات السادات والمطبلة لها ، حين طلعت بهذه المقولة هو ايضا واضح .. فهي كانت تبغي تضليل الجماهير واخفاء بعض ما انكشف في تراجع النظام المصري من عورات ..

لكن الحقائق والحيثيات كانت اسطع من كل ذلك :

اولا : لو انه فعلا هناك اتفاق بين موسكو والقاهرة حول الخطوة لما كانت قد وجهت منذ اعلانها بترحيب رجعي كبير ، وبمعارضة جميع القوى التقدمية ومن ضمنها الاحزاب الشيوعية العربية :

● شنت صحيفة « النداء » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي اللبناني هجوما عنيفا على قرار السادات منذ اليوم الاول لاعلان ذلك القرار وربطت بينه وبين مجمل التحركات اليمينية والرجعية الجارية في المنطقة . وخلصت الصحيفة الى القول :

« واذا كان قرار السادات يشكل تراجعا امام ضغوط اميركا ، وتراجعا خطيرا في هذا الظرف بالذات من شأنه ان يفتح الطريق من جديد امام المزيد من التنازلات التي لا تنتهي مع اميركا الا بالاستسلام ، كما سبق للسادات نفسه ان اعلن بناء لتجربة سابقة ، فهو في الوقت نفسه يشكل تراجعا خطيرا ايضا امام ضغوط اليمين المصري وتحركه الواضح الاهداف » ـ النداء ـ ١٩ تموز ـ ١٩٧٢ .

وصباح اليوم التالي طلعت « النداء » بالعناوين التالية :

ردود الفعل العربية والعالمية على بيان السادات :

ترحيب حار لدى الرجعية اللبنانية والعربية

تل ابيب : دليل انتصار صمود اسرائيل امام الضغوط السوفياتية

واشنطن ولندن وبون تشيد بالقرار

كما جاء في تعليق المحرر السياسي للصحيفة :

« ان القرار الذي اتخذه السادات انما كان نتيجة لحسم الصراع الدائر في مصر منذ مدة ؛ في داخل السلطة ، لمصلحة اليمين المصري (البغدادي وكمال الدين حسين وزكريا محي الدين وهيكل وغيرهم) . وقد وصل الصراع الى ذروته عندما استقبل السادات وفدا من عدد من قادة القوات المسلحة ، بينه ، على ما قيل ، الفريق احمد محمد صادق (المعروف بعدائه الشديد للاتحاد السوفياتي) وانه طلب من السادات في هذه المقابلة ان يتخذ قرارا بابعاد الخبراء السوفيات ، وباعادة النظر من الاساس بالعلاقات المصرية السوفياتية . ورافق هذا الطلب تهديد واضح بتدخل قيادة القوات المسلحة ، بشكل مكشوف ، في الشؤون السياسية من اجل فرض هذا الاتجاه ، بالشكل الذي تتطلبه الظروف » .

● صرح يعقوب زيادين احد قادة الحزب الشيوعي الاردني ان قرار السادات هو ضد مصلحة مصر وحركة التحرر العربي .

ثانيا : يؤكد عدم الاتفاق بالاضافة الى ما تقدم ، صيغة القرار الذي اعلنه السادات وحملة اجهزة الاعلام الموالية له على الاتحاد السوفياتي واعتبار خروج الخبراء السوفيات من مصر « تحريرا » لمصر و « تجديدا » لاستقلالها واستقلاليتها .

المقولة الثانية

ثاني مقولات التضليل واكثرها خطورة وخداعا واسرعها انكشافا في الوقت نفسه ، هي القول بان قرار السادات جاء ردا على منع السوفيات له من الحرب وضغطهم عليه للابقاء على حالة « اللاحرب واللاسلم » التي « يستفيدون » منها .. وقد اضيف لهذه المقولة « ان خروج الخبراء السوفيات سيحرر مصر ويطلق لها حرية الحرب اعتمادا على قدراتها الذاتية وقدرات الامة العربية » !!

هذه المقولة لا تصمد امام المعطيات التي سبقت القرار ، كما انها لم تصمد امام النهج السياسي المصري الذي تلاه :

اولا : جاء في البيان المشترك الصادر عن زيارة عزيز صدقي الاخيرة لموسكو كما جاء في البيان المشترك عن زيارة الاسد ، وكما كان بودغورني قد اعلن خلال زيارة السادات ان « للبلدان العربية الحق في استعمال كافة الوسائل التي بين ايديها من اجل تحرير الاراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ » . ويبدو ان هذا القول هو الذي ازعج بعض الحكام العرب واسقط من ايديهم احد التبريرات الرئيسية التي كانوا يبررون بها تخاذلهم ..

ثانيا : جاء في تعليق سوفياتي اشارت اليه « الهدف » في العدد الماضي :

« يناضل الاتحاد السوفياتي ضد الابقاء على حالة « اللاحرب واللاسلم » الشهيرة في الشرق الادنى والحالة التي لا تستجيب الا لمصالح اعداء العرب . وتسعى اسرائيل والامبريالية التي تقف وراء ظهرها وبالدرجة الاولى الامبريالية الاميركية بجميع الوسائل ، الى الابقاء على التوتر الخطر في الشرق الادنى . ويريد المعتدي وحماته الامبرياليون بخلق حالة « اللاحرب واللاسلم » كسب الوقت وتوطيد اقدامهم في الاراضي العربية المحتلة » .

ثالثا : جاء في ملاحظات السوفيات علماء وسياسيين على مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري :

« هناك من يقول بحل قضية ازالة آثار العدوان عن طريق الحرب ، **لكن من دون الاستعداد للحرب** ، سيؤدي ذلك الى تصفية الانظمة التقدمية .

ـ كما يمكن ان يؤدي الى مواجهة بين السوفيات والاميركيين ، ونحن لا نخفي انه من دون ضرورة قصوى ، لن نذهب الى ذلك .

ـ نحن لسنا ضد الحل العسكري كحل ، ضده فقط لاننا واقعيون » .

ومن هذه الملاحظات يتأكد ان السبب الاساسي في معارضة السوفيات للحرب هو عجز هذه الانظمة عن الحرب وعدم استعدادها لها .. وهذا اكدته قبل ذلك الحرب الهندية ـ الباكستانية .

رابعا : لو سلمنا جدلا بان السوفيات يعارضون الحرب بشكل مطلق ، ويحاولون منع النظام المصري عنها ، الا يعني ذلك ان « تحرير » مصر من السوفيات يجب ان يؤدي الى تملكها لحرية التصرف والتعبير عن اتجاهها الحقيقي ؟ فالى اين اتجهت سياسة حكام القاهرة بعد اخراج الخبراء السوفيات ؟

يقول محمد حسن الزيات الناطق الرسمي باسم الحكومة المصرية في المؤتمر الصحفي الذي عقده بتاريخ ٢٢ تموز ان مصر ستوافق على اي مبادرة سلام وانها ترفض الحل العسكري لازمة الشرق الاوسط . وقال بشكل اكثر دقة :

« اننا نرفض استمرار حالة اللاحرب واللاسلم لاننا نريد السلام فقط . ولا نريد حلا يفرضه العسكريون في اسرائيل . كما اننا لا نريد مجرد مهلة جديدة في انتظار حرب جديدة » .

واعلن « ان هدفنا هو السلام واننا مصممون على كون هذا السلام عادلا . ويجب ان تكون كل الفرص مفتوحة امامنا . وقد اقفلها الاسرائيليون واحدة تلو الاخرى لكننا نضغط لفتحها . ان مصر تريد ان تتوصل بكل الطرق الى سلام يحفظ الوحدة الاقليمية لدول الشرق الاوسط ويحترم حقوق شعب فلسطين » .

هذا التصريح الذي ادلى به الزيات بعد اربعة ايام من اعلان السادات عن قراره يكذب تكذيبا قاطعا مقولة ان السوفيات كانوا العائق في وجه الحرب ، حتى ليكاد يؤكد من جهة اخرى انهم كانوا ، على العكس ، من العوائق التي اعاقت استسلام النظام المصري .

السياق الحقيقي لقرارات السادات

منذ ان طرحت موضوعة الحل السلمي في الشرق الاوسط كان واضحا ان الطرف الامبريالي الصهيوني الرجعي يهدف من وراء هذا الحل الى تحقيق جملة من الاغراض المتتالية تدخل تحت عنوان كبير واحد هو اعادة ترتيب اوضاع المنطقة بما يخدم مصالح مجموع اطراف هذا المعسكر المعادي . وهذا لا يكون الا ب :

● تصفية حركة المقاومة الفلسطينية كمقدمة لتصفية القضية الوطنية لشعب فلسطين وتثبيت الكيان الصهيوني الاستعماري على الارض الفلسطينية .

● تصفية مواقع حركة التحرر الوطني العربية اينما تواجدت في المنطقة .

● تثبيت وتقوية الانظمة الرجعية وبسط هيمنتها على المنطقة .

● ضرب التحالف الستراتيجي مع المعسكر الاشتراكي وطليعته الاتحاد السوفياتي .

● وضع ترتيبات « السلام » « العربي » ـ الاسرائيلي موضع التنفيذ بالشكل الذي يحقق للكيان الصهيوني الانتقال الى المرحلة الامبريالية مرحلة السيطرة الاقتصادية الاحتكارية والسياسية والفكرية على المجتمع العربي

وبالفعل ، كان هذا هو الاتجاه العام ، لمجموع المشاريع والمبادرات والتحركات الاميركية والصهيونية والرجعية العربية منذ حرب حزيران عام ١٩٦٧ حتى الان . وليس مشروع روجرز ، ومجازر الاردن ، ومبادرات فتح قناة السويس ووساطات وتحركات الرجعية السعودية ، والتصلب الاسرائيلي الا علائم بارزة على هذه الطريق .

الظروف المحيطة بقرار السادات

اما حول موقع قرار السادات الاخير في خريطة الاحداث المرتبطة بهذا المخطط التصفوي الشامل، فهذا ما تبرزه سلسلة التحركات والاحداث التي سبقت هذا القرار ومهدت له .. وشكلت الضغط الذي حسم الصراع داخل النظام المصري الذي عبرت القرارات الاخيرة عنه .

وهذه الاحداث والتحركات توالت على الشكل التالي :

● قبل ان يبرز اي شيء جديد على سطح الاحداث في الشرق الاوسط اعلن الدكتور كورت فالدهايم عن عودة يارينغ لمتابعة مهمته في المنطقة وقال ان هناك عناصر جديدة في الوضع تستدعي ذلك ..

وبهذا الاعلان يكون « الحل السلمي » قد جدد مرة اخرى موقعه كعنوان للاحداث الجارية في المنطقة .

● في هذه الاثناء كان اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري وصاحب « الوساطة » الشهيرة بين المقاومة والنظام الاردني في تموز ١٩٧١ ، يعود من زيارة للقاهرة اجرى خلالها محادثات مع الفريق صادق ليقضي يوما واحدا في دمشق ثم يطير فجأة الى السعودية حيث يقضي قرابة اسبوع يجري خلاله محادثات تفصيلية ومطولة مع الامير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران السعودي . والجدير بالذكر ان مصطفى طلاس يشكل (الفريق صادق) في سوريا ، اي القطب الاكثر ميلا نحو اليمين السوري الجديد ونحو معارضة العلاقات العربية السوفياتية ، حتى ان مصادر كثيرة للانباء رشحته لان يكون محور استقطاب يميني داخل النظام السوري .

● بعد زيارة طلاس للسعودية ومباحثاته هناك طار وزير الدفاع السعودي الى واشنطن واجرى محادثات مطولة ومغلقة مع كل من ملفن ليرد وزير الدفاع الاميركي ، ووليم روجرز ومساعده سيسكو والرئيس نيكسون .. وقد سلم للاخير رسالة من الملك فيصل وتلقى منها جوابا ..

ونقلت وكالة الانباء السعودية الرسمية في حينه (راجع الاعداد الماضية من « الهدف ») عن دوائر في البيت الابيض ان تلك الدوائر « ترتقب النتائج الايجابية لهذا اللقاء الاميركي ـ السعودي » .

● وبالفعل قبل ان يعود الامير سلطان من واشنطن كان وليم روجرز يطير الى المنطقة فيزور صنعاء حيث يعلن عن اعادة العلاقات بين اليمن الشمالية والولايات المتحدة ، ثم يزور البحرين حيث يؤكد اصرار حكومته على موضوع القاعدة البحرية هناك ، وبعدها يزور الكويت واليونان، وتأتي هذه الزيارة للخليج في اعقاب زيارة الرئيس الاميركي لطهران .

منظمة الدفاع الاقليمية

وبالاضافة لاعادة العلاقات مع صنعاء ومن بعدها مع الخرطوم ، وتثبيت موضوع القاعدة العسكرية في البحرين ، كان روجرز يحمل معه مشروع حلف استعماري جديد لمنطقة الشرق الاوسط ، هو مشروع يوجين روستو القديم واسمه « منظمة الدفاع الاقليمية » (صرح روجرز في الكويت بأن الحفاظ على استقرار المنطقة وازدهارها لا يتأمن الا بتعاون اقليمي بين الدول المطلة على الخليج) .

وهذه المنظمة الاستعمارية الجديدة تعتمد على انشاء محاور متقاطعة تربط كل المواقع الرجعية في المنطقة الى بعضها البعض وتربط اطرافها بالاحلاف الاستعمارية الكبيرة . وتبدأ تلك المحاور من الحبشة والسودان لتطل على البوابة الجنوبية للبحر الاحمر حيث جرى مؤخرا احتلال اثيوبيا واسرائيل بالتعاون فيما بينهما لخمس جزر يمنية . ومن هناك يتصل المحور بصنعاء فالسعودية فمسقط وعمان والبحرين ودويلات الخليج « العظمى » ، فايران فحلف المعاهدة المركزية .. ويتصل هذا المحور بحلف جنوب شرقي اسيا عن طريق القاعدة العسكرية في